فاذا كان موضوع الشكوى هو اسقاط اسم من احدى الكشوفة وثبت للمأمور ان ذلك الاسقاط حاصل فعلاً فعليهِ ان يضيف الاسم الساقط الى الكشف الخاص بهِ . اما في كل حالة اخرى فيجب عليهِ ان يدوّن نتيجة التحقيق في الكشف الخاص بذلك

٦٢ — وعند الانتهاء من تصحيح الكشوفة وضبطها يرسل المأمور صورًا منها مختومة بختمهِ الى رئيس مجلس القرعة . وللمأمور ان يسقط من الصور التي يرسلها بهذه الصفة اسماء الاشخاص الذين تظهر وفاتهم في دفتر المتوفين (ستأتي البقية)

ناموس النشوء في تقدم العمران

(٤)

ان المبدأ الاول في تقدم العمران جارٍ على الناموس المعروف بناموس الاستعمال والاهمال مع حفظ الموازنة بين تأثير المحيط الخارجيّ في الامة وبين تهيئها الداخلي التدريجي . وعبّروا عن ذلك بقولهم ان مبدأ التقدم الاجتماعي قائمٌ بانحطاط الانانيّة وارتقاء الغيريّة . فان هذا الناموس هو نفس ما يجري عليهِ ارتقاء الاحياء من ادناها الى اعلاها . فاذا وقع اختلالٌ سريع في الموازنة بين المحيط وحالة الحيّ الداخليّة كأن يتغيّر المحيط فجأةً قبل ان يستعدّ الحي للملائمتهِ صار الى الهلاك والانقراض . ولكن اذا تغيّر المحيط على سبيل التدريج استعدّ الحيُّ لهُ تدريجًا كذلك حتى يبقى معهُ على تمام الملائمة . فان لم تتم هذهِ الملائمة في جيلٍ واحد تمّت في ما يليهِ من الاجيال كما يُشاهد في حال المهاجرين من بلادٍ الى أُخرى الذين قد لا يتأتى استعدادهم لاحوال الوسط الجديد فيتمّ امرهُ في اولادهم والاحفاد .

فيؤخذ من ذلك ان تقدّم التمدّن انما هو تدريجيٌّ بطيءٌ في التربية واعتياد الوسط طبيعيًّا وعقليًّا وادبيًّا حفظًا للموازنة بين الامة وبين المحيط فيجري ذلك من جيلٍ الى آخر وتسري عناصر التقدم بطيئةً في مجموع الجنس البشري غير ظاهرة في سريانها هذا الى العيان . فكلُّ مدينةٍ تُبنى وكل مخترع يجدُّ وكل رأيٍ يظهر الى ساحة الوجود وكل مبدإٍ ينتشر في العمور يؤثر شيئًا في المحيط الاجتماعي فتتغيّر بهِ نسبة الامة اليهِ ويقضي عليها باستعدادها الداخليّ لهُ على التدريج . وكل ما ينتهي اليهِ حال الجيل الواحد من مبلغ التمدن ينتقل الى الجيل التالي فيضيف الى محيطهِ مادةً جديدةً بحيث يصبح محيط الجيل التابع الذي ينبغي ان يستعدّ لهُ مختلفًا عنهُ . ثم اذا ارتقت الامة الى حالٍ جديدة من التمدن أثّر ذلك في محيطها ايضًا وهذا

أعدَّ للجيل الذي يليهِ محيطاً جديداً على التعاقب والتبادل الى ما شاء الله

وهاك ايضاح ذلك ملخصاً مما ثبت لاهل النظر والتحقيق في تاريخ التمدن منذ نشأتهِ الاولى الى ما بعدها من الاطوار

اجمعت شهادة المحققين ان حال النوع الانساني الاولى كانت حال تعدٍّ وعداء وكان محيط كل قبيلةٍ مجموع قبائل مجاورة تناصبها الشرّ وتضمر لها الاذى والضرّ فتضطرُّ تلك القبيلة الى اتخاذ اسباب الحيطة والاستعداد الدائم لدفع شرّها وضرّها حتى تشغلها هذه الحال عمَّا سوى الاستعداد المستمرّ الى النضال والقتال

ثم لما كان عدد كل قبيلة قليلاً وافرادها متشابهة الطبقة والحال كان مجال العواطف الغيريَّة محصوراً في العلائق الزوجيَّة والوالديَّة . على ان هذه العواطف مع ضيق دائرتها وضعف امرها كانت هي الجرثومة الاولى التي نشأت منها مبادئ الغيريَّة العظمى في ما تبع ذلك من اطوار تقدّم التمدّن والعمران

ففيما كان محيط القبيلة القليلة العدد كلهُ عداء وحقداً وانتقاماً لم يكن يخلو حالها الداخليَّة من موضعٍ لمبادىء الامانة والشكر والعدل والمحبة العائليَّة والمودة الشخصيَّة ومراعاة حقوق الرفيق والشريك على ما فيها من القلة والضعف . ولذا كان ميدان الانانيَّة في حفظ كيانها الخارجيّ ازاء اعدائها اوسع حدوداً من دائرة الغيريَّة في نسَبها الداخليَّة وكانت هذه العواطف الغيريَّة على حداثة نشأتها مشوبةً بصبغة الانانيَّة . فكان اسماها ادباً وفضيلةً العصبيَّة القوميَّة واخلاص الطاعة الى سيّد القبيل . هذه كانت صورة الحالة الاجتماعيَّة لاول عهدها على ما ينطق بهِ تاريخ كل امة الآن كهنود اميركا وسكان جزائر البحر المحيط وعرب البادية وغيرهم

واما الوجه الذي ترقَّت فيهِ الغيريَّة وانحطَّت الانانيَّة على التدريج فهو اتساع نطاق الامة عدداً وتنوُّع طبقاتها وتفرُّع نسبها في دوائر الشرع والقضاء وتشعُّب طرق الرزق والاحتراف اذ بهذه العوامل يتسع المجال لمبادىء الغيرية لما يزداد فيها من النسب الاجتماعيَّة . وكلما ارتقت حال القبيلة المدنيَّة ارتقت معها هاتيك المبادىء على الدوام كما كان شأن امم مصر واشور وفارس والهند في سالف العصور (وكما هي حال الصين الى هذا اليوم في ضعف شؤونها المشهورة) وكما كان من امر اليونان القدماء بعد ان اتحدت قبائلهم فصارت مجموع محالفاتٍ وكما انتهى اليهِ حال الرومان فتألفوا امةً سياسيَّةً واحدةً تضمُّ عناصر مختلفة وقبائل عديدة . ففي كلٍّ من هذه الصور الاجتماعيَّة تقلُّ الحاجة الى ازدياد التحصُّن والدفاع الحربي فيحلُّ محلَّ الغزو والغارة محبة الارتزاق بمعايش الزراعة والصناعة وحينئذٍ تقوى الحاجة الى

التعاون الشعبي وينشأ للامة حاجات جديدة واحوال عمرانية مرتقية فيأخذ الليل الى المناوأة والقتال بالضعف والزوال على نسبة الطور الذي بلغتهُ كل قبيلة من المدنية والحضارة . وفي حال ارتقاء الامة المدني يصبح فضُّ المشاكل بين الفرد ومواطنيهِ اقناعيًّا ضرورتًا اديًّا بعد ان كان القاضي بينهما حدُّ الحسام . وبعد ان كانت اسمى العواطف الادبية عند الامة عاطفة الاعتصاب الجنسي تسود محبة الوطن باسمى معانيها الى الحدّ الذي بلغتهُ عند اليونان والرومان

ولنلاحظ هنا ان باعتلاء المبدإ الادبي تفقد الحياة الجندية نزعتها الاولى الانانية المحضة وتمسي مدرسة التهذيب الاخلاقي وتضحية الذات مغتذية بعناصر الغيرية على قدر غير يسير . يؤيد هذا القول المقابلة بين واقعتي ماراثون وثرموبيليا وبين غارة عصابة هجية بما هو معلوم من قسوتها البربرية وقرمها الى شرب الدماء

على ان الظواهر الادبية نظير اخواتها الظواهر الطبيعية في انها قد لا يظهر فيها الفاصل بين العناصر المختلفة تمام الظهور ففي محبة الوطن التي اشرنا اليها كانت الانانية غير مفارقة للغيرية . فمن الجهة الواحدة كانت الوطنية مشابهة للاعتصاب الجنسي ومن الجهة الاخرى اتسعت حدودها حتى لحقت بالوطنية العامة بين البشر اجمعين . فكان العنصر الاعتصابي دائم الظهور في المحبة الوطنية بدوام تألف الامة المدني . وكأنما تاريخ اليونان بعد طرد الفرس من البلاد كان تاريخ النزاع بين الوطنية العليا والوطنية الدنيا . اما الرومان فحين مدُّوا رواق سلطتهم الى تخوم البحر المتوسط جامعين تحت جناحي نسرهم (شعار لوائهم) تلك القبائل المختلفة العناصر والنزعات — القائمة لذاك العهد على الخصام والعداء — بجامعة الاشتراك في مصلحة التهذيب والتجارة والسلم — حينئذٍ — تمهّدلهم السبيل الى بث روح الوطنية العامة التي كان من اعزّ اركانها المساواة بين طبقات الخلق في نظر الشرع

هذا ولا يجوز الغفلة في عرض هذا البيان عن انهُ لم يتأتَّ لهاتهِ الأمة توطيد اركان هذا المبدإ (الوطنية العامة) الاَّ بعد ان عانت المشقات وتجشَّمت الاهوال من الانقلابات السياسية . وذلك لانها اتَّسع حجمها باسرع مما ارتقى جسمها بحدود الحجم . فتسرَّعت بسحق مبدإ الحكم الذاتي المكنون في صدور القبائل المتفرقة قبل الاوان واقامت الامبراطورية على رمة الجنسية . فكان من الحكم الطبيعي ان قبائلها المختلفة العناصر لم تكن قد تمكَّنت بينها عُرى الاتحاد العام الصحيح فلم تقوَ على صدّ هجمات البرابرة واغاراتهم على حدود مملكتها المتسعة الارجاء . غير ان ذلك المبدأ (اي الوطنية العامة) الذي غرستهُ الامبراطورية الاولى

لم يكن من حظهِ التلاشي والفناء بل نما وزكا وانبثَّت اصولهُ في نفوس ذلك الجيل يرثهُ الخلف عن السلف . حتى انهُ حين اصاب الاجتماع الاوروبي مرةً ما يكاد يقضي على اوصالهِ بالانحلال فيعود مجموعهُ الى قبائل متفرقة هبَّت كوامن تلك الجراثيم الموروثة من مبدإِ الرومان وتمَّت لها الغلبة على دواعي ذلك التفريق . وهكذا كان شأن تلك المبادىء الرومانية في ايام شارلمان العظيم بانتصارها على عوادي الانقسام الى المخالفة الجنسيَّة والاعتصاب الشعبي . وجملة القول ان مبادىء النظام الروماني هي التي مهَّدت السبيل الى النظام الاقطاعي في القرون الوسطى فكان اساسًا للنظام الاوروبي وركنًا من اركان العمران الحديث

فنرى من ذلك كلهِ ان التقدم في تغيُّر المحيط الاجتماعي مع متابعة الامم لهُ لم يحد عن قياس التدريج . فحيث تجد الامة باقيةً على حال السكون الداخلي والمحيطي كما في قبائل المتوحشين لا ترى اثرًا لذلك التقدُّم الاخلاقي المذكور . وحيث ترى نموًّا في العدد دون ارتقاء يقابلهُ في التركيب والتنوُّع في الوظائف والنسب كما في اكثر امم اسيا الحريصة على حال الخمول والجمود ترى حالها الاخلاقي والادبي وسطًا بين المتوحش والمتمدن وذلك كلهُ شاهدٌ على صدق القاعدة الاساسية المتقدمة الذكر وهي ان تقدم الامة جارٍ على ناموس الموازنة بين حال المحيط الخارجيّ وبين حالها الداخليّ وانها في خلال ذلك يرتقي محيطها فتسمو أفكارها فترتقي اخلاقها وتلحقهُ في شوط الارتقاء الدائم على التعاقب المستمرّ

ولنقف الآن عند هذا الحد من البيان مرجئين استيفاء الكلام فيهِ على سائر وجوه الشبه بين ارتقاء الاجتماع ونشر الاحياء الى الجزء التالي ان شاء الله ولنعطف بعض النظر على اثر هذا البحث الجليل الشأن الى ما يبنى عليهِ من الاحكام الاجتماعية التي هي باحوالنا الشرقية امس وعلينا اصدق فنقول

اولاً — ما دام التقدم لا يرجى لحيّ قبل تغير محيطهِ فما احرى اهل الشرق فرادى وجماعات في توخي هذه الغاية بمازجة امم الارتقاء اليوم ما احرى ائمة التشريع باقتباس شرائع العدل والمساواة الى حد التمام. ما احرى ذوي السيادة بالاقتداء بنظرائهم الغربيين في تسهيل اسباب النجاح على العباد . ما احرى اهل الغنى والثراء باقتفاء آثار ارباب النخوة الوطنية والغيرة الانسانية . ما احرى حملة العلم فينا بتجري اساتذتهم في انتقاء موضوعات الدرس والتدريس واعتماد احسن اساليب البحث والتحصيل . ما احرى المؤلف منا والكاتب والشاعر بمتابعة شركائهم السابقين بحسن الوضع واحكام التبويب واطِّراح الحشو والتقعر وانتهاج مناهج الابداع والاختراع . ما احرى القابضين على ازمة ادارات المدارس ودوائر الخير العام بمحاكاة اولئك

المصلحين اعلام الفضل والهدى في السلوك يبني جلدتهم مسالك النبل والاخلاص فينبذون الاغراض ويعرضون عن الاعراض ويعمدون الى تعهد القديم بالتغيير والتقويم والقلب والابدال في ما وكل اليهم من الاعمال. بل ما احرى بني المشرق اجمعين بالنهوض من رقدة التهم حرصاً على ما بقي لهم من جراثيم الحياة قبل ان يلحقوا بسالف الامم. هذا الاحتكاك بالغرب هو الذي نريده يتغيير المحيط لا بمجرّد التباهي بتقليد العوائد والازياء او اقتباس الالقاب والاسماء

ثانياً — ان سنة الارتقاء هي التدريج ابداً والطفرة محال. هذا هو الذي يهوّن على المصلحين الحكماء في اي الاجيال ويكبح جماح الحدة والهياج ويأخذ المسالك على اهل التهوّر ونزق الشباب. ينشأ بعض فتياننا اليوم على التبرّم من حطة الشرق ودائه الدفين فتأخذهم النعرة على شرف ما يعبرون عنهُ (بالوطن) فيندفعون في تيّار الحماسة وفي كل وادٍ من الوسوسة يهيمون. يزعمون ان الاصلاح يقوم بالقذف والسباب في قاعات الخطب ومقاعد الطلب وحلقات المجالس على ما يشاهد اليوم في مصر وتسير بهِ ركائب الاخبار وقد فاتهم ان الامواج لا تصدُّ بالهياج وان ما كفَّ سيلٌ بالكف ولا ردَّ جيشٌ بقرع دُفّ ولا ساد بالجهل قوم. يرجّون ان يمضي عام في ساعةٍ او ينقضي قرنٌ في يوم. نعم طال على الشرق رقادهُ ولكن ما رحم الليل سميرَهُ المسهّد فعجّل اليهِ الصباح. نعم اشتدَّ في الشرق فسادهُ حتى غلت القدور في الصدور غير ان الطيش مفسدة الاصلاح. فالعاقل العاقل من ذكر ان الامور مرهونة باوقاتها فصبر على الايام واستنَّ بسنة الزمان وجارى محيطهُ حتى يتنقل تنقل الافياء. هذه هي شريعة الوجود وهذا هو ناموس الارتقاء. فكلٌّ من تعجّل الى دعوةٍ قبل اوانها يقطف الاثمار قبل نضجها ويأتي الامور في غير نهجها. فلكم رأى الشرق من عواقب التغرير ردّاً على الاعقاب وكم جازت الطبيعة عضّات الطياشة شديد العقاب حتى شدوا على انفسهم خناق الضيق بدل الافراج وزادوا على الداء ادواء من حيث يبغون العلاج

ثالثاً — المرء ابن محيطهِ على الدوام. فما اجهل من قصر نظرهُ في التنظير بين الاقران فمدح هذا على رُقيهِ وذمّ ذاك على هبوطهِ في حال من الاحوال. نقول زيدٌ وعمرو متشابهان في الفطرة والاستعداد فتقدم الاول لنشاط العزم وتأخر الثاني لضعف النفس وقلة الحزم على حين انك لا تعلم محيط كل منهما من المنشإ والتربية وفعل الوراثة وتمكن العادات. ثم ترى قوماً دبَّ فيهم النشاط فلحقوا باهل الاقدام وقوماً آخرين بقوا على وهن العزائم وسقوط الهمم فتقول هناك ميدان العقول وهنا مقرُّ الجهل والخمول وقد فاتك النظر الى الفرق بين المحيطين من موقع البلاد وموضعها من مطامع اهل الاطماع واخلاقها الموروثة وحال قوّادها من العدالة

والاستبداد الى غير ذلك من الاحوال الملابسة ومقوّمات الوسط والمحيط . فالحكيم المنصف من راعى هذه الاحكام الطبيعيّة في احكامهِ فانصف الناس بمدحهِ واطرائهِ وتعنيفهِ وازرائهِ. ولعمر الحق ما وقع على نفسك من مكارهِ الدنيا اشدُّ من لوم اخيك وهو يجهل حالك ولا ذقتَ كاساً امرَّ من تقبيح امرك وقد لا يكلف يوماً سوَّالك

رابعاً — ان كان تكامل المحيط موقوفاً بالطبع على تكامل الانضمام في ذراتهِ وعناصرهِ كما تنضم قطرات السحاب قبل الانصباب فلتطب نفوس بني المشرق وليستنشقوا انفاس الرجاء من منافذ اليأس ان فيهم اليوم في اقطار مختلفة فيهِ وبلدان متفرقة منهُ مَن ضمنوا من انفسهم التفاني في اصلاحهِ فوقفوا الارواح والاعمار والاموال على تنويرهِ وصلاحهِ يضيقون الى محيطهِ كل يوم ولو ذرَّة من عناصر التمدن القويم من نشر علم وانهاض همة والهاب لب يسلكون في ذلك مسالك الحكمة والدعة والسكينة والثبات حتى تُمثل حقائق افكارهم كما تُمثل مواد الطعام في الابدان وتسري عناصر الغذاء في خلايا الثبات . لا يعلو صياحهم في المحافل والاسواق ولا يموهون بفضلهم على صفحات الاوراق وينشرون صلاحهم في الآفاق انما هم المربون الالباء والمرشدون الاصحاء والكتبة العقلاء هؤلاء هم الذين بجهادهم واجتهادهم سيبلغ الشرق ما قدر لهُ من النماء. فعلى اساس بنيانهم نشيد اركانهُ وبنبراس هديهم يتعالى شأنهُ في معارج الارتقاء

دمشق

متري قندلفت

رسم الخرائط

نُشر اطلس[1] بالامس في بلاد الانكليز كُتِبَ فيهِ انهُ أُنفق على عملهِ خمس مئة مليون جنيه . اي مضاعف النفقات التي انفقتها انكلترا على حربها مع البوير . ومعلوم ان النفقات التي اقتضاها رسم ذلك الاطلس وطبعهُ لا تساوي عشر معشار هذا المبلغ ولكنهُ لم يرسم الاَّ بعد ان انفقت دول الارض ما لا يحصى من الاموال على تخطيط البلدان وقياسها بالضبط من عهد المصريين والاشوريين والفينيقيين الى الآن فقد اشتغلت كل الدول العظيمة بتخطيط البلدان ورسم الخرائط ولاسيما الدول الاوربيَّة وجمهوريَّة اميركا ولا تزال تشتغل كذلك واشتغل معها السيَّاح وارباب الرحلات من عهد حنو وهيرودوطس الى الآن. والاطالس الصغيرة التي يباع الاطلس منها بيضعة غروش لم يتسنَّ رسمها الاَّ بعد ان أُنفق ما لا يحصى من الملايين على تحقيق ما رُسم فيها

(١) الاطلس مجموع الخرائط سمي كذلك نسبة الى اطلس ملك مراكش كما سيجيء